﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النحل: 24 - 25]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتينِ لما قَبْلَهُما:

تقرير وحدانيّة اللـه يستلزم تقرير الرّسالة

لمّا احتجّ عليهم في الآيات السّابقة بدليل الوحدانيَّة ودليل البعث، ذكَر هنا دليل النّبوة، وهو نزول الوحي بكلام الله، وبيّن موقفهم من هذا الأصل، بعد بيان موقفهم تجاه الأصلَيْن السّابقين، فالمناسبة بين الآيات هو الانتقال من أدلَّة إثبات المرسِل ﷻ، إلى أدلّة إثبات الرِّسالة والرَّسول.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوْزَارَهُمْ﴾: الأوزار جمع الوِزْر - بكسر الواو - وهو الثِّقَلُ والحِمل الماديّ، ومن ذلك الوَزَر: وهو الملجأ في الجبل، وسُمّي الذّنبُ وِزْرًا والذّنوب أوزارًا: تشبيهًا بالجبَل في ثِقَلِه؛ لأنّ الذَّنب يُثْقِل صاحبَه[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

موقف المشركين من النّبوّة والتّنزيل

تُبيِّن الآيات موقف المشركين إذا سُئِلوا عَمّا أنزل الله سبحانه، وهو الكذب والبهتان والزّور، باتِّهام القرآن العظيم بأنَّه أساطير الأوّلين، أي: قصص السّابقين الّتي هي عبارة عن أحاديث للتّسلية، وهي في مضمونها كذب واختلاق، وهم يريدون بذلك صدَّ النّاس عن دين الله تعالى، وبسبب هذا الّذي صدر عنهم في إضلال النّاس، سيحملون آثامهم وذنوبهم يوم القيامة؛ لتكون لهم عذابًا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (وزر).

وعقوبةً وويْلًا في جهنّم، ومن آثام الّذين يُضلونهم بغير علم، وهذا الوِزْرُ الّذي يُحيط بهم، هو وزرٌ عظيمٌ شديد، ألا ساء الوِزْرُ وِزْرُهُم.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوع الواوِ ودلالتها:

يَحْتَمِلُ حرفُ الواو في جملة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ أنْ يكون استئنافيًّا؛ لتقرير إضلالهم لغيرهم بعد بيان ضلالهم في أنفسهم؛ لأنّ سؤالهم بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ وجوابهم عليه بقولهم: ﴿قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، هو إضلالٌ يتعدّى للغير، وقوله قبله: ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ هو ضلالهم الذّاتيّ، ويَكَأنَّ قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، هو ترجمةٌ لضلالهم الذّاتيّ وانحرافهم الباطنيّ في قوله: ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ وأثَرٌ له.

إنكارُ القلوبِ واستكبارُها أصلٌ في قلبِ الحقائقِ بالباطل

و يَحْتَمِلُ أن يكون الواو لعطفِ مَدخولِه ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ على قوله: ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾، كأنّه عطفَ إنكارهم للنبوّة على إنكارهم للألوهيّة[1].

نكتةُ استعمالِ ﴿وَإِذَا﴾:

استعمالُ ﴿وَإِذَا﴾ في جملة الشّرط ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم﴾ مؤذِنٌ بتحقُّقِ ما في حيّزِ القولين (قول السّائل وقول المسؤول)، وأنَّ سؤالَهم بهذا السُّؤال وجوابهم عليه قد حصل بالفعل، وما يزال يحصل[2].

مناظرةُ الحقِّ والباطلِ باقيةٌ ثابتة

نكتةُ بناء الفعل للمفعول:

بُني فِعلُ ﴿قِيلَ﴾ للمفعول في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم﴾؛ لإبهام الفاعل؛ لِغرضِ تعميمه، أي: وإذا قيل لهم من أيّ قائلٍ كان، في

عنادُ المشركين وإن تنوَّعَ السائلون

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 363، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 129، ودرويش، إعراب القرآن: 5/ 287.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 135، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 130.

أيّ وقتٍ كان، فالعبرةُ بأن يُسألوا هذا السُّؤال، وبناء الفعل ﴿قِيلَ﴾ للمفعول يدلّ على عنادِهم وإنْ تنوّع السّائلون وتعدّدوا، فموقفهم في الكفر واضح، لا يتأثّر بتعدّد السّائلين وتباينهم[1].

دلالةُ العدولِ عن السُّؤالِ إلى القول:

آثرَ النَّظم التَّعبير بِمُفْرَدَةِ القول في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ دون السُّؤال، فلم يَقُلْ: (وإذا سُئِلوا)، ومضمون الموجَّه للمشركين سؤال لا قول؟! والجواب أنَّ السُّؤال لم يكن مقصودًا ابتداءً؛ بل هو ضِمن أقوالٍ؛ أحدها سؤال، كما أنَّ السّائلَ لا يجهل الجواب، فهو لا يَسْتَفْهِمُ عن شيءٍ يجهله، ولذا كان سؤاله قولًا من الأقوال، فالقائل إذا كان مؤمنًا، فهو يسألهم سؤال تقريرٍ أو سؤال امتحانٍ لاستجلاء موقفهم، وإذا كان كافرا، فيكون صادرا من بعضهم لبعض، أي: من مُنْكِرٍ لِمُنْكِرٍ، فهو سؤال تَنَدُّرٍ واستخفافٍ وعدم اكتراث، كسؤالهم: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [البقرة: 26]، وسؤال الكافر في قوله: ﴿قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ [يس: 78]، أو سؤال امتحانٍ؛ ليَتَواصَوا على الكفر، لِئَلّا يَحيدَ أحدٌ منهم عن مبدأ الجُحودِ الذي أجمعوا عليه، كمن يسأل غيره، وهو ينتظر منه الجواب الذي تعاهدوه واستقرّوا عليه، واعتبار أنّ السُّؤال ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ والجواب عليه ﴿قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، هو من مُنْكِرٍ لِمُنْكِرٍ، هذا الوجْه يَظْهَرُ فيه عِلّة التّعبير بلفظ ﴿قِيلَ﴾ لا بلفظ (السُّؤال)، وهو عدم الاعتداد بسؤالهم أصلا، وتَنْزيلِه مَنْزِلَةَ القَوْلِ المُهْمَلِ الذي لا يستحقّ أن يرقى إلى مرتبة السُّؤال، ولذا لم يَقُلْ (وإذا سُئِلوا)، فهو من آحاد الأقوال لا من عزائم السُّؤال؛ لأنّه ممن يُجْحَدُ، ولأنّ مضمون السُّؤال ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ قضيّةٌ واضحة صريحة، فلا

السـؤالُ هنا ليس ناشئًا عن جهل الجواب

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 135.

تحتاج أنْ يُسأل عنها إلّا إذا كان السّائل غافلًا أو مُغرِضًا؛ لأنّ الّذي يُضيف التّنزيل إلى ربّ العالمين في سؤاله ﴿أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ لا بدّ أن يكونَ مؤمنًا، فيعرف أنّ الرّبّ لا يُنزِل إلّا الحقّ، أو أن يكون كافرًا يَجْحَدُ الرّبّ، فيقول ﴿أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ على سبيل الاستخفاف والاستهزاء، ويُظْهِرُ هذا الوجه أيضًا نُكتةَ التّعبير بلفظ الفعل مبنيًّا للمفعول؛ لأنّ السّؤال إذا كان من منكِرٍ لا يَكترث، فأوْلى به الإبهام وعدم الإظهار عن حكاية قوله تحقيرًا له ولمقصوده[1].

دلالة السّؤال بماذا:

آثرَ النَّظم استعمال أداة السّؤال ﴿مَّاذَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾، وهي للاستفهام عن بيان الجنس وحقيقته، والمراد بالسُّؤالِ السُّؤالُ عن حقيقة المُنَزَّل من عند الله، أيّ شيءٍ هو؟ أي: بيانُ حقيقتِه، والاستفهام بها محمولٌ على الحقيقة باعتبار أنّ الوفود والقبائل خارج مكّة كانت تسمع بالرّسول ﷺ وبالقرآن، فإذا توافدوا إلى مكّة في موسم الحجّ سألوا المشركين: ماذا أنزل ربكم؟ وهو مجازيٌّ إذا كان الاستفهام متداوَلًا بين المشركين بعضِهم لبعض على جهة التّندّر والاستخفاف، أو من المؤمنين لهم على جهة تقريرهم وإقامة الحجّة عليهم[2].

الحقائق لا تُؤخذُ إلّا عن الثِّقات الأثبات

نكتةُ التّعبير بصيغة ﴿أَنزَلَ﴾ دون (نزَّلَ):

اخْتيرَتْ صيغة ﴿أَنزَلَ﴾ دون (نزَّل) في قولِه تعالى: ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾؛ لأنّ غرض السّائل هو السّؤال عن أصل النّزول وحقيقته، لا السّؤال عن مراحله وهيئة تنزيله، فهذا مما لا يعتني به السّائلون، فجاء الاختيار لما يُناسب المَقامَ.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/ 159.

(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 261، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 131.

دلالةُ إضافة لفظ الرَّبِّ لضمير المُخاطَبينَ:

مُقْتَضى الرَّبوبيَّة العنايةُ بالخلقِ إرشادًا ودلالةً

أُضيف لفظُ الرَّبِّ لضمير المُخاطَبينَ في قولِه تعالى: ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾؛ لإفادةِ التَّهكُّم بإسنادِ الإنزالِ إلى لفظِ الرّبوبيَّة المضاف لضميرِهم، إذا اعتُبِر أنّ الكلام صادرٌ من بعضهم لبعض، فهو جارٍ على معنى، كأنّهم يتهكّمون على أن يكون التّنزيل محلًّا للعطاء والامتنان بالهداية الّذي هو من لوازم الرّبوبيّة، أو تكون الإضافة لإجراء كلامهم على أصل العادة الجارية من أنْ يُساق لفظ الرّبوبيّة في محلّ النّعمة والمنحة ولو كان على غير اعتقاد المتكلّم[1]، وعلى الاحتمالين فإنَّ إضافة الرّبوبيَّة إلى ضمير المخاطَبين تَسْتَدْعي اعترافَ المتكلِّم بأنَّ الله ﷻ يُنْزِلُ وحيًا.

نكتةُ حذف متعلق الإنزال:

ذكرُ الواضحات غير متَّجهٍ إلّا لنكتةٍ

لم يُقيَّد فعلُ الإنزالِ في قولِه تعالى: ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ بقيدٍ ما؛ بل جاء مُطْلَقًا، فلم يَقُلْ: (ماذا أنزل ربّكم على رسولكم)، وذلك لثبوت أنّ الوحي لا ينزل إلى النّاس إلّا من طريق وسائط بينهم وبينه، وهي وسائط النّبوّة والرّسالة التي تُناطُ بأشخاص الأنبياء والمرسلين بها، وهذا نظَرٌ متواترٌ لا يخفى على أحد، ومن جهة الوقوع، فإنّ بلاغَ القرآن قد وصلهم بواسطة الرّسول ﷺ وإنْ رأوْا أنّه مدَّعٍ أو مُنتحِل، إلّا أنّهم عاينوا الواسِطةَ التي تربطهم بالتّنزيل، وهو شخص الرّسول ﷺ، فلِشِدَّةِ وضوحِ أنّ التّنزيل مُتَّجِهٌ إلى الرّسول، وهو مبعوثٌ به، لم يحتج إلى النّصّ على جهته إيجازًا وإعراضًا عن إيضاح ما هو واضح.

نكتةُ رفع لفظ ﴿أَسَٰطِيرُ﴾:

توخّي دقّةِ النّظم كاشفٌ عن دقائق المعنى

جاء لفظ ﴿أَسَٰطِيرُ﴾ مرفوعًا في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وهو خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ تقديره: هو أساطير الأوّلين، أي:

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 107.

المسؤول عنه، ولو نصب لأثبت إنزالَ أساطير الأوّلين؛ لأنّ الأساطير لا تُنَزل ولا تكون من جهة اللّه أبدًا، فدلّ رفع لفظ ﴿أَسَٰطِيرُ﴾ على بُهتانهم للرّسول ﷺ بأنّه افترى القرآن من تلقاء نفسه، واقتبسه هو من أساطير الأولين[1].

نكتةُ اختيار لفظ الأوّلين دون السّابقين:

السّابقون أممٌ مُنْدَرِسَةٌ والأوّلون آثارهم باقيةٌ

آثرَ النَّظم الكريم اختيار لفظ ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ دون (السّابقين) في قوله تعالى: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ ليدلَّ على القِدَم في السَّبْق، وأنَّها أساطيرُ قديمة، فلفظ السّابقين يُشعر بالسَّبق المَحوقِ، فإنَّ قولنا: الأمم السّابقة، أي: المُنْدَرِسَةُ الذّاهِبَةُ، أمّا قولنا: الأوّلونَ، فهو يدلُّ على بقاءِ آثار الأوّلين في المُعاصِرينَ، وسياق الآية حديثٌ عن تلك الأساطير المرتبطة بالأوّلين الّذين بَقيَ لهم آثار فيمن بعدهم، لا في السّابقين الّذين اندرسوا وذهبت آثارهم، والأوّلون شاملٌ للقريبين والبعيدين، بخلاف السّابقين، فهو يُسْتَعْمَلُ في البعيدين، وهذا هو الغالب في الاستعمال القرآنيِّ.

معنى اللّامِ ودلالتُها:

تنزيل الجزاء منزلةَ المأمور به لتأكيد تحقيقه وإيجاب وقوعه

تعلَّقتِ اللّام في جملة: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ﴾ بجملة: ﴿قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، ولها ثلاثة احتمالات:

الأول: العاقبة، وتدخل على المآل الّذي لم يكن للفاعل غرضٌ فيه، فهي بمعنى الغاية لا التّعليل؛ لأنّهم لم يقولوا هذا القول لأجل أن يحملوا أوزارهم؛ بل تلك غايةُ قولهم ذلك.

الثّاني: الأمر، كالّتي في قوله: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [الطلاق: 7]، كأنّهم أُمِروا أن يَحْمِلوا أوزارهم مبالغة في إيجاب ذلك وحتميّةِ وقوعه بالنّسبة لهم وفيه مزيد إذلالٍ ووعيدٍ، وبهذا المعنى تكون جملة ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ﴾ استئنافيّة.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 131.

الثّالث: لام التّعليل تعليلًا حقيقيًّا، وذلك على إضمار فِعْلِ التَّقْديرِ، أي: قدّر ذلك؛ ليَحْمِلوا أوزارهم، والإضمار مرجوح[1].

سرُّ جمعِ الأوزار:

الأوزارُ باعتبارِ أثرها لا باعتبارِ عددِها

جُمِعَ الوِزرُ في قولِه تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ﴾ والوزر المذكور في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وزرٌ واحدٌ، وسرُّ ذلك الدّلالة على أنّ هذا الوزر أصلُ كلِّ الخطايا، فمن أنكر الوحي واتَّهمه بأساطير الأولين، فإنَّه يَحْمِلُ أوزاره التي ارتكبها، فهو بابُها وأصلها، أو لِتَنْزيلِهِ منزلةَ جميع الأوزار تعظيمًا له كشرطٍ من شروطِ قَبول الأعمال وتكفير السّيئات؛ لأنّه أصل الإيمان والكفر به خرقٌ لجميع أعمال التكليف.

بلاغة الاستعارة التَّمثيليَّة في حملِ الأوزار:

تشبيه الذُّنوبِ بالأوزار تقريبٌ لمعنى إهلاكِها في الآخرة

الأوزار هي الأثقال، واسْتُعيرَتْ في قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ﴾ لذنوبهم وخطاياهم، والاستعارة تمثيليّة، حيث شبّه حالهم في وقوعهم في شَرَكِ وورَطات ما اجترحوه من السّوءِ؛ بحالِ من يعاني من حِملٍ ثقيل لا يستطيع الانفكاك عنه، أو الخُلوصَ منه[2]، وفيه من البيانِ ما يدعو المرء ليتعجّب من دقَّته، فتشبيه المُذْنِبِ بحامل الأثقال لا يكاد يخطر على قلب بشر، فهو مشهدٌ غيبيٌّ فريد، يأتي المُذْنِبُ يوم القيامةِ حاملًا أوزراه؛ لِتُهْلِكَهُ في نار جهنَّم.

بلاغةُ المجازِ المرسل في حملِ الأوزار:

كلّ امرئٍ بما كسب رهين

وَيَصِحُّ أن يكون حمل الأوزار في قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ﴾ – ومثله قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ [الأنعام: 31] – مجازًا مرسلًا بذكر السَّبب وإرادة المسبَّب عنه، وهو العقاب عليها، وعبّر عن الجزاء بحمل الأوزار للإشارةِ إلى المساواةِ بين العقاب والعمل، حتّى كان الّذي يحمِل الوِزْرَ يحمِل جزاءه؛ لأنّهما متلازمان ومتساويان[3].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/ 520.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 132.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4159.

بلاغةُ التّقييد بالحال:

وعيدُ الغافلين باستيفاءِ الذُّنوب بالنَّصّ والتَّعيين

في جمعِ الأوزار وإضافتها إلى ضمير الغَيْبَةِ استغراقٌ لها، فيُسأل عن نكتة التّقييد بالحال ﴿كَامِلَةً﴾ في قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً﴾ دون الاستغناء عنها؟ ونكتة ذلك الدّلالة على أنّه لا يفوتُ شيءٌ من أوزارهم لم يُسَجّل عليهم، فقد يَتَوَهَّمونَ أنّ الخفايا قد تفوت، أو الهَيّن من السّوءِ قد يفوت، أو يُتوهّم أنّ في ذنوبهم ما يُكَفّر كما في ذنوب المؤمنين، فأتى بقيد ﴿كَامِلَةً﴾ حالًا؛ ليدلّ على عُسْرِ حسابهم وهوْل مؤاخَذتهم[1].

نكتةُ ذكر يوم القيامةِ مع تقدُّم ذكر الآخرة:

اقترن مصطلح اليوم الآخر باعتقاد المجازاة، ويوم القيامة بوقوعها

جاءَ التَّعبيرُ بيوم القيامة في قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، دون أن يقول: (في الآخرة) مع موافقته للمتقدِّم في قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾؛ فيُسأل عن ذلك؟ ويَظْهَرُ الفرق بين استعمال يوم القيامة والآخرة في الآتي:

تَقْتَرِنُ الآخرة بسياق الاعتقاد والإيمان، وبسياق المقابلة بينها وبين الدّنيا للمفاضلة والموعظة، كما أنَّ ذكرَها يتعلّق بعمل المكلّف واعتقاده فيها بالإيمان أو بالكفر، وما يَسْتَتْبِعُ ذلك من تَرْجيَتِهِ في خيرها وترهيبه من شرّها.

يرتبط يوم القيامة في القرآن الكريم بالحساب الفعليّ، والحكم والقضاء ووصفِ مقادير الجزاء الواقع بعد محاسبة النّاس، ويتعلّق بتحقّقِ ذلك من وقوع المجازاة بالفعل على ما قدّمه الإنسان، فيوم القيامة يرتبط بتحقيق نتيجةِ العمل، ولذا تقترن بما يكون للّهِ من قضاء وحسابٍ وحكمٍ بوقوع الجزاء وتحقيقه.

لِذا نجد أنَّه في سياق الإيمان والاعتقاد عبّر بالآخرة في قوله:

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 107، والبقاعي، نظم الدرر: 11/ 137، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 132.

﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾، فلمّا انتقل إلى سياق الحساب على ذلك وتحقّق نتيجةِ عدم إيمانهم عبّر بيوم القيامة فقال: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾.

معنى الواو ودلالتها:

المُتسبِّب في الآثام كالمباشِر لها

الواو في جملة: ﴿وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ﴾ لعطفِ مدخولِها على جملة: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ﴾، أي: ليَحْمِلوا أوزار أنفسِهم ويَحْمِلوا أوزار غيرهم ممّن ضلّوا بسببهم، وفائدة العطف: الجمع بين العمل الذّاتيّ وما يستتْبعه من أثَرٍ يتعدّاه إلى غيره، للدّلالة على أنَّ الإنسانَ مؤاخَذٌ بعملِه وأعمال من قلّدوه في الخير أو الشرّ[1].

معنى ﴿وَمِنۡ﴾ ودلالتها:

سيظفر المُضِلُّ بأوزارٍ من أضلَّهم

تَحْتَمِلُ ﴿وَمِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ أن تكون آتيةً للتّأكيد والمبالغة، وقد تفيد الاستغراق، أي: يَحْمِلونَ أوزارهم وكلَّ أوزار الّذين يُضِلّونَهُم.

وتَحْتَمِلُ أن تكون لبيان الجنس، أي: ليَحْمِلوا أوزارهم وأوزارًا جنسُها وحقيقتُها هي أوزار الّذين يُضِلّونَهُم.

وتَحْتَمِلُ أن تكون للتّبعيض، أي: يَحْمِلونَ بعض أوزار الّذين يُضِلّونَهُم؛ لأنّ أوزار الّذين يُضِلّونَهُم ليس جميعها بسببِ إضْلالِهم لهم[2].

سرُّ إضافةِ أوزار إلى الاسم الموصول:

المُضِلّون أعلامُ الضّلالة في الدُّنيا أعلام العذاب في الآخرة

آثرَ النَّظم الكريم الإتيان بالاسم الموصول وصلته في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾، دون الاكتفاء بذكر الأتباع بأن يقول: (ومن أوزار أتباعهم)، أو (ومن أوزار المُضَلّين)، فترك الإيجاز اللّفظي، وذلك لغرضين:

(1) درويش، إعراب القرآن: 5/ 287.

(2) السّمين الحلبي، الدر المصون: 7/ 208.

الأوّل: إجراء وصف الضّلالِ على ذواتهم بالاسم الموصول، مع إسناد الضّلال إلى مصدرِه وهو ضمير المُضِلّين المرفوع في قوله: ﴿يُضِلُّونَهُم﴾، وإسناده إلى مفعوله وهو الضّمير المنصوب في: ﴿يُضِلُّونَهُم﴾، ولو قال: (أوزار التّابعين) لم يكن فيه نصٌّ على صفةِ التّبعيّة، وهو أنّه اتّباعٌ على ضلال، ولو قال: (أوزار المُضَلّين) لاحتمل أن يكون ضلالهم ليس من جهةِ إضلالِ رؤسائهم لهم، ففيه إبهام الجِهة، فلمّا قال: ﴿يُضِلُّونَهُم﴾ فقد أثبتَ ضلال الأتباع وضلال المتبوعين وإضلالهم وذَمَّهما على ذلك.

الآخر: التّعبير بالاسم الموصول الخاصّ فيه مزيد نعيٍ وتوبيخٍ لهؤلاء الأتباع الضالّين؛ لأنّ الموصوليّة تؤذِن بعرفانهم والتّشهير بهم، وأنّهم ظاهرون بسيماهم، وليسوا مجهولين أو في محلّ الخفاء، فميّزهم بالموصول أكمل تمييز، فالموصوليّة أفادت ذمَّهم، والإشعار بِأنّ ما في حيّز الموصوليّة من مضمون الصّلة هو عِلّة المجازاة المذكورة وسببها بحمل أوزارهم وأوزار أتباعهم.

نكتةُ التّعبير بصيغة ﴿يُضِلُّونَهُم﴾:

الأوزار متكاثرةٌ بكثرة أتباع الضّالين في كلِّ زمانٍ

آثرَ النَّظم ذكرَ إضلال الآخرين بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾، دون الماضي، فالمقامُ مقامُ جزاء عملٍ قد تحقّق، فلم يَقُلْ: (ومن أوزار الّذين أضَلّوهم)، ونكتةُ ذلك استحضارُ الصّورة الماضية لإضلالهم واستحضار ذواتهم وهم يزاولون هذا الفعل ويكرّرونه؛ لإنفاذ الإضلال، بما يدلّ على حرصِهم الشّديد وتصميمهم الأكيد من غير توانٍ ولا ملل، بالإضافة إلى أنَّ المضارع يدلُّ على استمراريَّة الإضلالِ فيمن أُضلَّ مباشرةً، ومن أُضلَّ بطريق التَّبع في الأجيال اللّاحقة، وهذا من عظيم الوعيد، فالأوزار متكاثرة في حقِّ المضلّين، كما أنَّ الأجور مضاعفةٌ في حقِّ الهادين.

فائدةُ تقييدِ الإضلال ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾:

هـوى الأنـفـسِ أصـلُ الـضَّـلال ومنبعُ الإضلال

قيّد النَّظم الكريم إضلالَ المتبوعين وضلال التّابعين بأنّه بغير علم، فقال: ﴿يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، ولم يعبّر بالضدّ المُثبَت (يُضِلّونَهم بجهلٍ)؛ وذلك لفائدتين:

الأولى: أنَّ الجهلَ قد يكون عن خلوٍّ ذِهنٍ وغير قصد، فليس كلّه مذمومًا، فمنه قَدْرٌ يُعذَرُ معه فاعله، كما أنّ ثبوتَ الجهل لا يقتضي نفْي العِلم بالكلّيّة إذ قد يجهل الإنسانُ بأمرٍ، وهو يعلمُ منه جانبًا أو شيئًا، فلمّا قال: ﴿يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أفاد أنّ إضلال المتبوعين وضلال الأتباع قد حصل بوجهٍ لا يُعذَرون به، وبوجْهٍ يتقصّدون فيه الإضلال والضّلال، ويتعمّدونه، وبوجْهٍ ينفي عنهم العِلم بالكليّة فيما هم بصدده، فارتكبوا الضّلال، وما يصحبهم شيء من العِلم.

الأخرى: الإشارةُ إلى نفي لازم معنى العلم، وهو اليقين والتحقّق، وإثبات الظنّ والتّهمة واتّباع الهوى، أي: يُضِلّونَهم حال كون إضلال المتبوعين لهم ليس على وِفْق اليقين؛ بل على وِفْقِ الظنّ واستسهال مسالك الهوى، وحال كون ضلال الأتباع في تقليدهم ليس على وِفْقِ التّحرّي والاستيقان؛ بل كيفا اتّفق لهم بما تستلذّه طبائعهم من غير بيّنةٍ وبرهان؛ فقيّدَ بنفي العِلم للدِّلالة على أنّه لم يكن لهم حجّةٌ معتبرةٌ يُعذَرون بها في إضلالهم وضلالهم[1].

غرضُ استعمالِ ﴿أَلَا﴾ التّنبيهيّة:

قـرعُ الأسـمـاعِ بالتّنبيه تحريكٌ لذهنِ النَّبيه

صُدِّرت جملة الفاصلة ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ بألا التّنبيهيّة للاهتمام بمضمون الجملة، وتأكيد هذا المضمون وتحقيقه بغرض التّحذير من سببِه بعدم اقترافه، أو الإقلاع عنه بعد التّورّط فيه، "فأدخَل همزة الإنكارِ على حرف النّفي؛ فصار إثباتًا على أبلغ وجه"[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، اللسان، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (جهل - علم).

(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 138، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/ 133.

غرضُ التّعبير بالاسم الموصول وصلته:

لا يَهلكُ على الله إلّا هالك

التّعبير بالاسم الموصول بأداة ﴿مَا﴾ دون (الّذي) في قوله تعالى: ﴿مَا يَزِرُونَ﴾ لإفادة العموم، والتّعبير بالمضارع دون الماضي؛ لإفادة استمرارهم في ذلك، وهو الذي استحقوا به الدعاء عليهم، ولو قال: (ساء وزرهم)؛ لما أدَّى هذا الغرض.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأسطورة والقصّة:

الأساطيرُ مُدوّنةٌ في سطور، والقصَصُ أعمّ من ذلك

أصل الأسطورة من (سطر)، وهو يدلّ على اصطفاف الشّيء، كالصّفّ من الشّجر والنّخل وغيره، ومنه سطْر الكتابة؛ لأنّ السّطْر المكتوب يكون صَفًّا من الكلمات المتجاورة على امتدادٍ واحد، ومنه الأسطورة، أي: الكتابة القديمة المسطورة، وجمعها الأساطير، ثمّ لمّا كانت أخبارًا مكتوبة عن الأقدمين، غابت شواهدُها الواقعة، فخفيَتْ حقائقُها على الحاضرين، تَشكّكوا فيها؛ فلَصِق بمعنى اللّفظ معنى الارتيابُ، وقالوا: (الأساطير هي الأباطيل).

وأمّا القصّة فأصلها من (قصص) وهو تتبّع أثر الشّيء، وكذا القِصّة، وهي الخبر المتتابِعُ في أجزائه وسَردِه.

ويظهر الفرق بينهما من وجهين:

الأوّل: غلَبةُ الاستعمال، فالأسطورة غلب استعمالها في الكتابات الباطلة والحكايات الزّائفة، بخلاف (القصّة) فعند إطلاقها لا تدلّ على ذلك.

الثّاني: أنّ أصل الأسطورة يدلّ على أنها مخطوطةٌ مكتوبة في سطور، بخلاف القصّة فإنّها لا تدلّ على الكتابة والخطّ؛ بل تدلّ على العموم سواء كانت شفهيّةً محكيّةً بالتناقُل - وإنْ لم يكن لها أصلٌ مكتوب - ، أم كانت مكتوبةً مُدوَّنة.

وربّما تشابهت القصّة مع الأسطورة في كون كليهما من أجزاء يُسَلِمُ بعضها إلى بعض، وذلك بدلالة الأسطورة على اصطفاف أفراد الشّيء الواحد، فهذا بجوار هذا، ودلالة القِصّة على التّتابع في السّرد بتتبّع أجزائها[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (سطر - قصص).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والعشرون،
سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والعشرون، سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 26 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-23-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 26 : المجلد السادس والعشرون، سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-23-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9758876 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»